زاديغ وفولتير في أفضل العوالم الأوروبلية؟

بوريس سوغان ترجمة: خالد ولد قاسي

بدأت تدريس الفرنسية منذ قرابة أربعين سنة في وقت كان فيه تدريس نصوص بوريس فيان أو ريمون كونو يعرضك للفصل من المنظومة التربوية الوطنية. كنا بصفتنا مسؤولين عن نشر اللغة الجميلة ملكفين بتلقين لغة موليار وليس لغة رابليه ولا سيلين أو سان أنطونيو. (بالمناسبة، عندما نشير إلى لغة موليار كمرجع للغة الجميلة والسليمة هل المقصود بذلك لغة المزارعين أم لغة البرجوازيين أم لغة النبلاء؟)

لقد تجولت لمدة عشرين سنة في الضواحي الباريسية، من مونتورو سورفيل إلى لاغارين بوزون مرورا بفرساي ونويي سور سين، ومع مرور الوقت ترسخ لدي اليقين بأن أفضل وسيلة لكي يتقن التلاميذ اللغة الفرنسية هي الكتابة، بمختلف أشكالها وحالاتها: كتابة الأشعار والروايات المصورة والروايات المدرسية. كان من الضروري التخلي عن أسلوب التدريس الصارم الذي فرض علينا في السابق، حين كان التلاميذ يتهربون من الكتابة خوفا من ارتكاب الأخطاء وظنا منهم بأن إتقان الكتابة هو أن تكتب مثل شاتوبريان، ذلك الخوف الذي شل أجيالا عديدة من التلاميذ. فكان شعارنا : "الابتكار" بدلا من التقليد الأعمى.

وقد عينت في التسعينات في مدرسة إعدادية تقع في مدينة بانتان في الضاحية الشرقية لباريس، وبالتحديد في حي ليكورتيار: أحد الأحياء التي كثيرا ما تتصدر عناوين الأخبار لما يحدث فيها من أعمال عنف. يتكون الحي من عمارة هي الأضخم في أوروبا أطلق عليها اسم Le Serpentin ويقطن فيها خمسة آلاف شخص. نسبة البطالة فيها بلغت مستوى قياسيا وكان غياب الاختلاط فيها بين طبقات المجتمع المختلفة مقصودا وبلغت فيها الأمور درجة كبيرة من الانحطاط. فكان التدريس هناك في التسعينات إنجازا كبيرا في حد ذاته نظرا لانتشار الاعتداءات الشفوية والجسدية والسرقة والسطو والاغتصاب وحرق السيارات والإحباط النفسي... كان الأولاد ابتداء من الفصل الأول من التعليم المتوسط يفتخرون عندما يحضرون إلى المدرسة بدون منقلة ولا كراريس. وكانت تطلق صفارة إنذار الحريق ثلاث مرات في اليوم، بل حدث ذات مرة أثناء عقد مجلس الأساتذة أن انفجرت سيارة المديرة... ورغم تجربتي التي دامت عشرين عاما لم تكن بيدي أية حيلة وكنت مضطرا إلى تكييف طريقتي في التدريس أو بالأحرى إلى وضع طريقة جديدة. كتابة الأشعار مع التلاميذ سمحت لي بإقامة علاقة معهم، فكنت أقترح عليهم وصف أحيائهم وسكانها وما يقع فيها من أحداث. مكنتني نصوصهم المكتوبة بعفوية وبطابع ساخر وهزلي من اكتشاف هذا الإقليم الذي شوهت صورته الأحكام المسبقة والتصورات الخاطئة: كنت أعثر عبر قراءتي لنصوص التلاميذ على ألفاظ غير مألوفة: بعض الكلمات هنا وهناك، بعض الكلمات المنطوقة بشكل معكوس مثل Keuf وهي اختصار لكلمة kefli أي كلمة flic (شرطي) معكوسة وليس كما يعتقد التلاميذ اليوم كلمة fuck معكوسة، وبعض الكلمات من لغة المانوش : « *poucave, bédave, gadjo*... » أو كلمات من العامية التي كانت تستعمل في أواخر القرن العشرين: *condé* أو *daron* أو *كلمات كانت مستعملة في القرون الوسطى مثل catin*.

شرعت مع أحد الزملاء، فريديريك تيار، في إجراء بحث لمعرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بموضة عابرة تخص جيلا معينا مثلما يحدث بصفة دورية. طلبنا من التلاميذ جمع أكبر عدد ممكن من تلك المفردات. فوجدنا أنفسنا وسط طوفان من الكلمات.

كنا نعتقد أننا عبر هذا العمل سنزيل العنف الشفوي الذي كنا نراه أو نتعرض له في بعض الأحيان. كنا نأخذ تلك الكلمات مأخذ الجد، فكنا نفك شفرتها (إذ كان الهدف من استعمالها هو ألا يفهمها الشرطة والأساتذة والأولياء) ونتعرف على مغزاها مع التلاميذ وعلى طريقة كتابتها غير الثابتة ونشرح لهم ضرورة تثبيتها : كيف نكتب *bolosse* ؟ هل نكتبها *Baulhauss* أم *Beauloss*؟ (من الجدير الإشارة إلى أن هذه الكلمة كانت تطلق في التسعينات على الشباب البيض الأجانب على الحي، *les gaulois*، les *toubabs*، *الذين يأتون لاقتناء المخدرات، أما الآن فتعني lèche-cul* أي *التلميذ الذي يبحث عن رضا المعلم ويقال اليوم suceur* ويوسع مدلولها ليشمل*un intello* أي المثقف، شخص يحمل نظارات).

كنا نبحث عن أصل الكلمات : *niquer*[1] (من المصرية القديمة وليس كلمة مشتقة من ماركة الأحذية الرياضية). وجدنا فعل aller (يذهب) في كلمة *Vazi* (اذهب)، وهي عبارة غير مقبولة إذا ساتعملت لمخاطبة الأستاذ، لماذا غير مقبولة؟ بسبب صيغة الأمر، وصيغة المخاطب المفرد والمعنى الضمني لحرف y (ظرف المكان) : الذهاب إلى أين؟ إلى مكان آخر. لماذا؟ *Se faire voir, foutre*[2].

لا ينبغي الخوف من الكلمات، لا الكلمات البذيئة (التي يتعجبون من إيجادها في القاموس) ولا الكلمات الطويلة. الكلمات تسمي الواقع، فلننظر الواقع بأعيننا. وبالإضافة إلى تلك المشاكل اللغوية البحتة، كنا في بعض الأحيان نكتشف بعض التعابير تتناقض مع ما نعرفه عن جسد الإنسان، مثلا عندما تقول فتاة*J'm'en bats les couilles*[3] التي كانت تكتبها *J' m'emballe les couilles*

ولم نكد نشرع في هذا العمل حتى قام بعض الأولياء الغاضبين بتنبيه المدير الذي قام فورا بإشعار مفتشية التربية التي أرسلت مفتشا على وجه السرعة ليتأكد من أننا لا نستخف بلغة فولتير. لكن المفتش الذي لم يكن متزمتا وجد أننا في الواقع كنا ندرس اللغة بجميع سجلاتها.

بعد ذلك أعددنا مع التلاميذ قاموسا أرفقنا به وقائع أحداث هذا العام في إحدى المدارس الإعدادية الصعبة وهي أصعب مدرسة في محافظة سين سان دوني. (*Les céfrans parlent aux français* chez Calmann Lévy)

ثم حدث سوء تفاهم آخر: لم يقم الصحفيون الكسالى بقراءة سوى الجزء الذي يحتوي على القاموس في الكتاب. فقد أعجبهم الطابع المازح وإبداع "صبية" الضواحي، مركزين اهتمامهم على الألفاظ البذيئة فقط وعلى طابعها الأجنبي عن اللغة.

ثم تعرضنا لهجمة من مجموعة من الأساتذة الجامعيين المدافعين عن لغة راسين: المدافعون عن فكرة التعليم الصارم التي كانت سائدة في عهد جدي، عندما كان الأطفال المتخرجون من المدرسة الابتدائية لا يرتكبون أي خطأ إملائي. كانوا يتهموننا بالتساهل من أجل كسب ود التلاميذ وبأننا سجانين نغلق على هؤلاء الشباب في الغيتوهات اللغوية.

---

[1] تعني ممارسة الجنس. [المترجم]

[2] عبارة بذيئة تقترب في المعنى من عبارة "اذهب إلى الجحيم". [المترجم]

[3] عبارة تعني "أنا لا أبالي"وحيث كلمة couilles تعني الخصيتين (أي خصيتي المتكلم). [المترجم]

وكم عانينا لكي نشرح لهم بأننا نتدارس هذه اللغة دون احتقار ولا اشمئزاز لكي نبين للتلاميذ بأن اللغة الفرنسية التي نستعملها كل يوم تحتوي على مقابل لكل تلك الألفاظ التي يستعملونها وبأن تلك الألفاظ غير الشرعية التي يستعملونها لكي لا يفهمم الكبار هي أيضا تخضع لقواعد نحوية وأنه بإمكاننا أن نجد أصل كل كلمة من تلك الكلمات. أي بعبارة واحدة أن لغتهم يمكن أن تكون محل دراسة لغوية. عبر اهتمامنا بالكلمات التي يستخدمونها كنا نهتم بعالمهم ونشجعهم على الابتعاد عنه شيئا ما لكي يتمكنوا من الخروج من هذا الغيتو اللغوي. وأصبح التفكير في اللغة عملا مشتركا: كنا نتعلم منهم بقدر ما كانوا يتعلمون منا. كانت بيننا علاقة تبادل وحوار. وأصبحت لغتهم معترفا بها بعد أن كانت "مهمشة".

وبما أننا نتحدث عن الغيتوهات لنتحدث إذا عن الغيتوهات الاجتماعية. فقد تم جمع أسر المهاجرين في مكان واحد نجد فيه كل المشاكل الاجتماعية، من بطالة وأسر وحيدة الوالد وأسر كبيرة العدد وأمية الأولياء والجهل وانتشار الاقتصاد الموازي والعنف والجنوح.
هؤلاء المراهقون المهمشون اجتماعيا والمتهمون والمغضوب عليهم، كيف لنا أن نتعجب من مخاصمتهم لنا نحن المدرسون الذين يمثلون هذه الثقافة التي تنظر إليهم باحتقار من فوق صرح كتابنا الكبار؟
لماذا نستخدم لغة الجلاد لغة "البرجوازية" (علمت مؤخرا أن المقصود بالبرجوازية لديهم "البيض") ولغة الأساتذة الذين يتكلمون مثل "جان دارك"؟ هؤلاء المراهقون لا يرفضون تعلم الكلمات والقواعد النحوية فحسب بل يرفضون أيضا قيم نظام غير عادل يبقيهم في البطالة، ومن ثمة فهم يرفضون الامتثال له. وبالتالي فإن الكثير منهم يعتقدون أن العلوم هي "ديانة البيض". أما فيما يخص مفاهيم الأخوة والاحترام والتسامح فكل ما يرونه في محيطهم القريب يبين لهم أنها مفاهيم خاوية ولا وجود لها في الواقع: ففي الحي الذي يعيشون فيه تسري قواعد أخرى : لا نقبل « la dominance » (تحريف لكلمة domination التي تعني الهيمنة)، ونحل مشاكلنا فيما بيننا. طاعة الأوامر تعني الخضوع والتحول إلى « *baltringue* » (جبان). فالحي يخضع لقانون الصمت وقانون الغاب.
المشكلة لا تتعلق بإتقان اللغة فقط حتى نحاول معالجتها عن طريق المدرسة كما نعالج جسما مريضا.

تعرضت الكاتبة فايزة غان لمشلكة مماثلة عندما نشرت كتابها « *Kiff Kiff demain* » وهي في التاسعة عشرة من عمرها : كانت تلميذة لدي وكانت تشارك في ورش الكتابة التي كنت أنظمها في جمعية ليزونغرينور LES ENGRAINEURS(وهي جمعية تقوم بإعداد سيناريوهات بالاشتراك مع شباب الحي)، وكانت قد ألفت وأخرجت سيناريوهات لأفلام قصيرة وأرتني بخجل الصفحات الثلاثين الأولى لرواية كتبتها على كراس مدرسي ثم عرضت تلك الرواية على إحدى دور النشر (Hachette) التي قررت على الفور توقيع عقد مع فايزة. كتبت الرواية بصيغة المتكلم حيث كانت فايزة التي تقمصت دور الراوي تقص الأحداث اليومية لفتاة تقطن أحد أحياء الضاحية الباريسية...
بعد أن نشر مقال في مجلة le Nouvel Observateur أجرت فايزة العديد من المقابلات مع إذاعات ومحطات تلفزيونية ساعدت على التعريف بروايتها فأصبحت من أنجح المبيعات في السوق (بيعت منها أكثر من مائتي ألف نسخة في فرنسا). الرواية التي تشد القارئ كتبت بصيغة ساخرة أعجبت حتى التلاميذ الذين كانوا يستغرقون في قراءتها ثلاثة أيام فقط في

حين كانوا يعرضون عن قراءة ولو بضع صفحات للكاتب موباسان : « c’est quoi c’vieux français ?! » (ما هذه الفرنسية القديمة؟)

لكن الصفحات الأدبية في الصحافة لم تخصص أي مقال لفايزة. ولم تجر أي مقابلة في برنامج أدبي: فقد أدرجت في الصفحات الاجتماعية فقط : "احكي لنا كيف تمكنت فتاة من الضواحي الباريسية من تأليف رواية بكلمات عديدة وكيف كانت الأمور مع والديك؟ هل كان أبوك يضربك؟ وماذا عن المخدرات؟ وكيف تجنبت السقوط في الجنوح؟ ..."

الأماكن الوحيدة التي استقبلت فيها ككاتبة فرنسية هي في جامعات أمريكية وفي البرازيل واليابان (ترجمت رواية Kiff Kiff demain إلى عشرين لغة).

والحقيقة هي أن عالم الأدب لا يقبل الاختلاط. على كل حال، لا يقبل الاختلاط خارج إطار فئة اجتماعية معينة.

والأغرب من ذلك أنه عندما كنت أقترح على زملائي الفرنسيين دراسة نصوص رواية Kiff Kiff demain مع تلاميذ في السنة الأخيرة من التعليم المتوسط نظرا للاهتمام الكبير الذي استقطبته كانوا يعرضون عن ذلك. وأدركت أن عنوان الرواية كان سببا كافيا لإعراض أحدهم عن قراءتها. في حين قال آخر إن "المؤلفة" كانت قريبة جدا من التلاميذ وأن "المؤلف" عليه أن يحتفظ بقدر من "الاستعلاء" حفاظا على مكانة الكاتب. أما الآخرون فلم يروا في ذلك أي فائدة من الناحية التعليمية ولا كيف يمكن لتلك الرواية أن تستغل في إطار البرنامج الدراسي بحيث تساعد التلاميذ على إتقان الكتابة : أي بعبارة أخرى "لم نتلق بعد أي تعليمات من مفتشية التربية بخصوص طريقة الاستعمال والأسئلة التي ترافقها". تلك الأسئلة التي تعطي نكهة خاصة للأدب كما سنراه فيما بعد.

والطريف في هذه القضية هو أنه في السنة التي تلت ذلك، قامت السلطات التربوية باعتماد كتاب Kiff Kiff demain ليدرس في مدارسنا وارفقته بكل الأسئلة الجاهزة. وعندما أظهرت ذلك للآخرين كان زملائي المتمسكين بمعتقداتهم يقابلونني بابتسامة متهكمة. وكنت المدرس الوحيد الذي زارته مؤلفة الكتاب. ومن الجدير أن أشير إلى أنه لم يبق في مكتبة الإعدادية إلا خمس نسخ من الكتاب من أصل ثلاثين أهدتها لنا دار الناشر.

إن النتيجة التي أستخلصها للوهلة الأولى هي كما يلي: الغيتوهات مبرمجة اجتماعيا وتعاملها الصحافة المتهورة والكسولة باحتقار بالتواطؤ مع نخب مثقفة وضعت الثقافة الشعبية في مزبلة الجمهورية سعيا منها إلى فرض الثقافة الحقيقية كما تفرض العقائد الدينية. يكفي أن نرى الرقابة المفروضة على أغنية الراب. فباستثناء إذاعة سكاي روك التي لا تبث إلا أردأ الأغاني المنتشرة في السوق لا يمكننا سمع أغاني الراب في أي مكان آخر؟ هل يتعذر سماعه؟ ما الذي يخيفنا؟ ليس مقنعا القول بأن أغاني الراب لا تحتوي إلا على اتهامات واستفزازات ذكورية ومعادية للمثلية الجنسية. أليس الراب عبارة عن تجديد للشعر الشعبي، تدفق من الكلمات لا نريد سماعها لكنها تعبر حدود الأحياء والبلدان؟ كيف نفسر أن هذه النمط في التعبير الذي بدأ في السبعينات مع فرقة لاست بويتس *Last Poets* في الولايات المتحدة والتي مازالت رائجة في كل القارات لا تبث إلا بهذا القدر الضئيل؟ ألا يرجع رفض الاعتراف بهذه النصوص كأشعار إلى أن مغني الراب يتحدثون في أغانيهم عن الخراب الذي ما فتئ يخلفه النظام الليبرالي منذ نهاية عهد الاستعمار. الراب شعر حماسي يناضل من أجل التقارب بين الشعوب مثل ما تقوم به تلك الفرق المؤلفة من فلسطينيين وإسرائيليين، كما يكافح ضد ختان البنات في

السينغال... (انظر البرنامج الذي بثته قناة Arte الفرنسية الألمانية حول ثقافة الهيب هوب). لقد عززت هذه الرقابة المفروضة على الراب الشعور بالتهميش الذي يعاني منه الشباب.

هذا هو السياق الذي علينا أن ندرس فيه. إن المهمة صعبة وخاصة للمدرسين الجدد أو المؤقتين الذين يجدون أنفسهم في بيئة معادية جدا. بعضهم لا يتحمل وينتهي به الأمر إلى الاستقالة : وآخرون يحاولون الصمود أمام الاحتقار الطبقي والتثبيط. في كل صباح نذهب إلى المدرسة كما يذهب الجندي إلى جبهة القتال ونحن الوحيدون من بين الكبار الذين يخاطبهم هؤلاء المراهقون المتوترون. لكن هل هذا يعني أننا نعيش في جحيم؟ منذ عشرين عاما وأنا أدرس في هذه الإعدادية، أواجه فيها هؤلاء المشاغبين الصغار، إذ تتراوح أعمارهم بين 10 و16 سنة، ولكني لم أسأم أبدا. ليس لأني ماسوشي ولكن لأن هناك مهمة صعبة يجب تأديتها. كون 80% من تلاميذ السنة الأخيرة من الإعدادية يحصلون على الشهادة مقارنة بعشرين سنة إلى الوراء حيث لم تتجاوز هذه النسبة ثلاثين في المائة يجعلنا نشعر بالسرور. وكذلك عندما نرى فايزة أو مراد الذي التحق بفرقة كوميدية بعد أن شارك في التمثيل في بعض الأفلام القصيرة أخرجتها فرقة ليزونغرينور.
عندما نتوصل إلى جعل التلاميذ يتجنبون التأخر والغياب وإلى خفض عدد أعمال العنف فيمكن اعتبار ذلك نجاحا. لكن الأصعب ما زال أمامنا.

في أول درس في اللغة الفرنسية هذا العام مع قسم في الفصل الأول في الإعدادية، طلبت من التلاميذ ماذا ندرس في هذه المادة، مادة اللغة الفرنسية، وماذا نفعل أثناء الدرس وماذا نتعلم. فأجابوني بعفوية بأنهم يتعلمون فيها إتقان الكلام والتواصل بشكل أفضل والحوار.
حسنا، لكن ماذا أيضا؟
لم تأت الكتابة في إجاباتهم إلا بعد فترة طويلة من الحيرة.
طبعا، نتعلم القواعد الإملائية والصرف والمفردات، كل تلك الأشياء.
بطبيعة الحال، في مادة الفرنسية، نتعلم الكتابة بشكل جيد. لكن ما معنى الكتابة بشكل جيد؟
أن تكتب دون ارتكاب أخطاء ودون شطب.
صحيح أنه لا ينبغي ارتكاب أخطاء عند كتابة السيرة الذاتية للبحث عن وظيفة. لكن مع وجود المصحح اللغوي في الحاسوب الذي يسطر تحت الأخطاء بالأحمر يمكننا تجنب ذلك.
ثم إن العاملين في المحاسبة و "الممرضات" ومضيفات الطائرة والميكانيكيين وعاملات التجميل ولاعبي كرة القدم (أكثر المهن التي يرغب فيها التلاميذ) هل يطلب منهم كتابة شيء آخر غير اسمهم ورقم الضمان الاجتماعي؟
وعنما نكتب الرسائل الهاتفية القصيرة لا توجد أي قيود إملائية.
لا يبدي التلاميذ أي اعتراض على إجراء الاستجوابات في الصرف، بل يرتاحون إلى وجود الدروس. إذ إن الأمور واضحة أثناء الاستجواب، فأنت إما تعرف الإجابة أو لا، لكنها على الأقل أسهل من تلك النصوص الغريبة[4] التي يجبروننا على قراءتها. لكني سألتهم بإلحاح، هل هذا كل ما نقوم به في مادة الفرنسية؟

[4] استعمل الكاتب في النص الأصلي كلمة chelous وهي كلمة louche (غامض) معكوسة. [المترجم]

لم يجبني أحد. لا يرون أي شيء آخر.

وما ذا عن الأدب، هل تعرفون عنه شيئا؟

لا، لا شيء على الإطلاق... بلى، إذا فكرنا مليا، الأدب هو أسئلة تطرح.

أجبت بالسؤال، ماذا تقول؟

طبعا، أسئلة تطرح علينا حول النصوص : من هو الراوي؟ أين هي الروابط الزمنية؟ هل هذا تشبيه أم استعارة؟ هل الأحداث التي يرويها النص منفصلة عن سياق الراوي أم لا؟

لم أدخل في تفاصيل الخراب الكبير الذي أصاب قطاع التربية والذي نراه من خلال تلك الأجوبة وواصلت بشجاعة: هذه النصوص ألفها كتاب وستجدونها في الكتب. ما هي أنواع الكتب التي نجدها في الأدب؟ بعد الإلحاح بدؤوا في ذكر الرواية والشعر والحكايات وكذلك مجلة *Closer* التي تهتم بحياة مشاهير عالم الفن و... "الأفلام"!؟

خرجت من القسم غاضبا وأخبرت زملائي بما جرى. هل تتصورون؟ كل ما تعلموه هو أن دروسنا تعلمهم إتقان اللغة والإجابة على الأسئلة. لكنهم قابلوا غضبي بابتسامة مواساة واستسلام للقدر...

لنكن واضحين، أنا لا أشتكي من مستوى التلاميذ الذي ينحط... لا، بل ما يؤرقني هو تشويه عملنا الذي تسببت فيه طرق التدريس التي نتبعها. المشكلة معقدة، لنعترف بذلك. من أين ينبغي أن نبدأ لحلها؟ هل بإجبار التلاميذ على القراءة؟ القول أسهل من العمل. ما الفائدة من قراءة الإلياذة؟ فقد سبق لهم وأن رأوها في شكل رسوم متحركة. الجرائد؟ عندما أطلب منهم إحضار واحدة منها يحضرون كاتالوغ أسواق كاركفور؟ لا فائدة من القراءة. المسألة ليست مسألة خدمة، أنا متفق على ذلك.

إذا قلنا لهم أنه كلما قرأنا قلت الأخطاء التي نرتكبها لا يقنعهم هذا الكلام وحتى أنا لا يقنعني. إجبارهم على الكتابة؟

الكتابة بالنسبة لهم هي نقل درس أو الإجابة على سؤال. هذا يعني أنه يجب بذل جهد كبير لإقناعهم بأن حفظ جدول الصرف ليس المقصود منه إعادة ترديد ما حفظوه يوم الامتحان بل هو وسيلة تمكنهم من تحديد زمن حدوث الفعل ومن تصور المستقبل والفصل بين الحاضر والماضي القريب أو البعيد.

(عندما يستخدمون عبارة « à l'époque » (زمان) فإنهم يستخدمونها بشكل يجعلها تشمل كل زمن الماضي ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حيث لوسي هي "تلك المرأة التي أكلت التفاحة")

بينما نسعى إلى إقناعهم بأهمية التاريخ، تاريخ الأفكار، تاريخهم كل شيء يجذبهم نحو حاضر كله تسلية واستهلاك فوري.

وبينما نسعى إلى جعلهم يدركون الواقع، الواقع الذي يتجاوز حدود الحي ومحيط أقربائهم، ليس برامج تلفزيون الواقع التي يشاهدونها، كل شيء يشجعهم على العيش في العالم الافتراضي.

وبينما نحثهم على الاهتمام بالنصوص القديمة (بدلا من إجبارهم على احترامها) تعمل سياسة ساركوزي بإلحاح على الحط من قيمة المثقفين مع ناطق رسمي جاهل لا يفرق بين الأدب والملابس الجاهزة.

وبينما نسعى إلى جعلهم ينتبهون إلى المعاني، المعاني المحددة للكلمات يتم تصوير التراجع في المكاسب الاجتماعية على أنه إصلاحات، والدعاية على أنها إعلام والتقشف الصارم على أنه مشروع مستقبلي والتمسك بالتقاليد على أنه تقدم. عالم أورويلي كل شيء فيه لا معنى له وحيث المعالم كلها أصبحت مبهمة.

نعلمهم كيف يستمعون إلى ما يقولنه خلافا لرجال السياسة والصحفيين المدافعين عنهم.

وبينما نعلمهم فض النزاعات بالتراضي دون عنف وبدبلوماسية نجد أن العالم كله أصابته نوبة جنون ابتداء من الطابور في السوق إلى شباك البريد مرورا بملعب كرة القدم وانتهاء بالشرق الأوسط في حين تستقطب المصارعة المزيفة أعدادا كبيرة من المتفرجين.

ينبغي التحدث مع التلاميذ وللتوصل لذلك من الضروري إقامة علاقة مبنية على الثقة معهم: التحدث عن كل المواضيع دون الخوف من الكلمات. التحدث معهم لأن الأولياء قليلا ما يتحدثون مع أبنائهم. فالأباء لا يروون المحن التي عاشوها. والد ديابيه لم يرو أبدا لابنه البالغ من العمر 16 سنة قصة رحلته من مالي إلى المغرب على دراجة هوائية وقطه البحر الأبيض المتوسط على متن زورق ليحط في مرسيليا... في عام 1941. ما نشاهده حاليا هو قطيعة بين الشباب وعالم الكبار: لقد صدمت عندما وصلت إلى الحي سنة 1991 ووجدت الشباب يعيشون في نوع من الاكتفاء الذاتي، مكان مقتصر على المراهقين حيث ينظر إلى الكبار كأنهم أعداء: بعد ما شاهدت ذلك بدأت ورشة كتابة مع عشرين تلميذا تقريبا سمحت لنا بكتابة سيناريو لفيلم قصير قمنا بإحلاجه في 1997 بعنوان مسكين. كان الفيلم يروي كيف كانت مجموعة مختلطة من المراهقين تعمل على تجنب طرد أحد أفرادها إلى بلده الأصلي.

لكن منذ ذلك الوقت، زادت بحسب رأيي تلك العزلة: فيس بوك وألعاب الفيديو وزيارة مواقع الإنترنت المغرية (المواقع التي يمكن أن نشاهد فيها مثلا صور ذبح رهينة أمريكية أو اغتصاب امرأة برازيلية أو محطات الراديو عبر الإنترنت أو المواقع الموجهة لطائفة معينة أو حتى الطائفية. عالم يفلت تماما من قبضة الكبار: نحن نستقبل بعضهم بصفتها مدرسون : قيل لنا مثلا أنه إذا كان القذافي يقتل شعبه فلأنه "يهودي" وأن نهاية العالم ستكون في 2012: "لقد ذكر ذلك في القرآن وسيحدث ذلك يوم الجمعة"

وأشعر أيضا في بعض الأحيان أن بعض المدرسين يكتفون بتدريس البرنامج في عجالة بسبب عادة تقييم التلاميذ عبر الاستجوابات وما يرافقها من جداول العلامات والأرقام التي تجعلهم يطمئنون. أنا بنفسي أشعر بأني في مأزق بين خيارين : الأول، تكييف التلاميذ مع نظام تقييم موحد لا معنى له وتجاوزه الزمن لكنه مازال يعمل ويوجههم أو بالأحرى يضيعهم... والثاني هو أن أتكيف مع مستوى التلاميذ لأرفعه إن أمكن ذلك عبر استخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تستقطب اهتمامهم وتثير لديهم تساؤلات والرغبة في الكتابة والقراءة ومشاهدة الأفلام...

ينبغي أخذ الوقت اللازم وعدم ترك وقت البرامج يتجاوزنا (الوقت الذي يركض الجميع وراءه ليلحق به لكن دون جدوى) الوقت اللازم لإكمال الدروس، وتيرة تتخللها الاستجوابات الجماعية.

اللغة لا تتقن بل تروض. فهي حية وغير ثابتة، متمردة، منفرة وجامدة وغير منطقية. ويتطلب ترويضها وقتا طويلا والتحلي بالصبر والثقة.

بوريس سوغان في 2 يناير 2012

المؤلفات:

Crame pas les blases (Calmann Lévy)

Co-écrits avec Frédéric Teillard :

Les céfrans parlent aux français (Calmann Lévy)

Petit manuel de savoir vivre à l'usage des enseignants (Hachette littératures)

Feu le principal (Stock)

Les Engraineurs : les-engraineurs.org

لمطالعة كل نصوص مجلتنا الإلكترونية عن "لغات الضواحي" – المتوفرة أيضا بلغات أخرى – يمكنكم زيارة هذا الموقع:
http://eipcp.net/transversal/0113